6- التعامل مع الناس، وكأنهم أطفال

إن مشروعات جمع التاريخ الشفوي، والقصص الفردية وحلقات البحث الجامعية المكرسة لتحدّث طلاب المرحلة الجامعية الأولى عما يهمهم، والمعارض التي تقام في المجتمعات المحلية التي تجمع الأشياء المفضلة لدى الأشخاص هي التجارب التي يحتفي بها دعاة العادية. وكثيراً ما يتم تقديم الاحتفاء بما هو عادي على أنه توكيد للناس يتسم بالديمقرطية ومعاداة النخبوية. يزعم هذا الفصل من الكتاب أن الاحتفاء بما هو عادي ليس أياً من هذه الأشياء. ما تظهره هذه النزعة هو أن هذا الاحتفاء يكشف الافتراضات المتعالية من جانب النخب التي تدير المؤسسات الثقافية والتعليمية. ونجد هذه الأفكار أكثر بروزاً في وسائل الإعلام، حيث يعتقد مصممو البرامج حقيقة أن الناس العاديين لا يستطيعون التركيز على موضوع بعينه أكثر من ثلاث ثوانٍ. تقوم المؤسسات الإخبارية التي تسعى لاجتذاب جمهور الشباب، على ضفتي الأطلسي، بتحويل برامج شؤون الساعة إلى عروض بصرية سريعة تناسب من هم في السادسة من عمرهم. لقد عبر بعض الإعلاميين التلفزيونيين عن قلقهم البالغ إزاء تردي جودة منتجاتهم. قبل موته في صيف عام 2003، قال الإعلامي المخضرم ديفيد برينكلي عن الوسيلة الإعلامية التي كانت كل حياته: «لقد أصبحت الأخبار التلفزيونية سخيفة وفارغة من أي محتوى، بحيث باتت لا تختلف كثيراً عن البرامج الترفيهية».

يُرفض النقد الموجه للاتجاه الذي تتبناه وسائل الإعلام في معظم الأحيان على أنه رد فعل يعبر عن ذعر النخب العجوزة وغير الديمقراطية التي أدمنت الثقافة المتعالية. غير أن ما يشجع ثقافة التلقيم بالملعقة ليس الروح الحقيقية للديمقراطية؛ إذ نادراً ما تُترجم سياسات التشميل والتوكيد إلى احترام حقيقي للحكمة التي يمتلكها الجمهور الذكي. إن غياب أي احترام حقيقي تكنه النخبة الثقافية لقدرة الناس على تحسين أنفسهم ومواجهة تحدي الفرص التي يقدمها التعليم والثقافة هو بالتحديد ما يجعل هذه النخبة تعاملهم على أنهم مرضى محتملون وليسوا كجمهور للأفكار. قد يبدو تحصين أطفال المدارس، وطلاب الجامعات، أو زوار المتاحف ضد الشعور بالرهبة أو تدني المعنويات سياسة دعم متنورة. غير أن التعامل مع الناس كأفراد ضعفاء يمكن أن يتعثروا عندما يواجهون أي تحدٍّ فكري من شأنه أن يولّد مناخاً من التوقعات المتدنية.

تكشف التوقعات المتدنية عن ازدراء أولئك الناس العاديين الذين تستهدفهم المؤسسات الثقافية والتعليمية. كما يسأل الشاعر نيكولاس مَري: هل ينطوي احترام الجمهور على مخاطبة أدنى المستويات العامة، والأداء الأقل تطلباً، والمتعة المكتسبة دون أدنى جهد، أم يعني التعامل مع القارئ العادي، ومرتاد الحفلات الموسيقية، والمواطن المتحضر على أنه يمتلك بعض الذكاء والشهية للتجربة الفنية المحفِّزة[162]. ويمكن طرح سؤال آخر فيما يتعلق بالموقف الذي تبنته المؤسسات التعليمية حيال الطلاب. حتى المؤسسات النخبوية مثل جامعة هارفارد منشغلة بإيجاد

بيئة يتم التعامل فيها مع الطلاب بوصفهم أطفالاً هشين بحاجة للحماية من المخاطر التي تطرحها النزاعات والخلافات الفكرية. طبقاً لدوروثي رابينوفيتش، بوسع طلاب السنة الأولى من كلية الحقوق أن يلاحظوا الغلالة الرسمية من عدم الرضى التي تغطي كل شيء يوحي بالنزاع أو الجدل[163]. يوصي برنامج جديد صمم لطلاب السنة الأولى، بعنوان «إدارة المحادثات الصعبة»، «يوصي الطلاب بالحاجة إلى الاعتراف بالعواطف في تبادلاتهم اللفظية. وتشرح إحدى المطبوعات التي كتبها أحد مؤلفي البرنامج بحروف كبيرة أن المحادثة الصعبة هي أي شيء يصعب الحديث عنه». إن البرنامج لا يحوّل الطلاب إلى أطفال وحسب، بل يقلص دور العقل والمنطق في المناظرة الفكرية. يبدو أنه في المحادثة الصعبة، وهي أي شيء يجد الشخص صعوبة في الحديث عنه، ينبغي أن يتم جمع العقل/المنطق مع العواطف والتجربة الشخصية. إذا كانت جامعة نخوبية مثل هارفارد تتبنى رسالة تعليم الطلاب حول كيفية التحدث عن عواطفهم وتجاربهم، فليس من المفاجئ أن الجامعات الأكثر عادية، تتعامل مع طلابها بوصفهم أطفالاً مشوشين.

ثقافة طفولية

ما من أحد، في الواقع، يدعم علناً عملية تسطيح محتوى العملية التعليمية. عندما تتبنى المؤسسات موقفاً متراخياً حيال المعايير، فإنها لا تفعل ذلك على أرضية أنها تريد أن تقدم للجمهور تعليماً أقل جودة، أو أنها تريد أن تحط من أهمية التجربة الثقافية.

إنهـا تفعل ذلك؛ لأنها تعتقد أن النـاس سيشعرون بالاغتراب ما لم ينخرطـوا في تجـارب يعدونها ذات صلـة مباشرة بحياتهـم وتجاربهم الشخصيـة. غير أنه من المحتم أن هـذا التأكيد على هذه الصلة يوجد في حالـة مـن التوتر الدائـم مع اكتسـاب معرفة موضوعيـة وحساسية فنيـة. تتسـم الأفـكار القوية في كثير مـن الأحيان بطابـع مجرد، ويتم تطويرهـا من خـلال استيعاب جملة مـن التجـارب المتناقضة. ولذلك فإنها تبدو في كثير من الأحيان متناقضة مع الحس السليم الذي يحكم الحيـاة اليومية ومع التبصرات المكتسبة عبر التجربة اليومية. لا يمكن لاكتسـاب المعرفة الموضوعية أن ينحصـر بعملية التفكير في قصة حياة شخص من الأشخاص.

كمـا أنها تتطلب شكلاً من أشكال التعليـم يبعد الطالب عن اليومي والمباشـر من أجل تحفيز العقل على تخيل إمكانيات أخرى. ليس هناك طريق مباشر من العواطـف الشخصية إلى المعرفة الموضوعية، كما أن الطـلاب بحاجة إلى مواجهة عوالم ليست ذات صلة مباشرة بحياتهم. ويجـب عليهـم أحياناً حتى أن يفهمـوا أن المعارف التـي اكتسبوها عبر الحياة ليست ذات صلة بقدرتهم على فهم موضوع معين.

سيجد طـلاب الحقوق في جامعة هارفـارد أن الاعتراف بتجاربهم العاطفيـة والشخصيـة لا علاقة لـه بتدريبهم القانـوني؛ إذ إن دراسة القانون تتطلب فهمـاً للوقائع الموضوعية وتفسيرها عبر أشكال التفكير العقلاني الـذي لا علاقة كبيرة له بالتجربة الشخصية. يمكن المجادلة بأن التشجيع العلاجي الذي يتلقاه طلاب هارفارد لا ينبغي أن يمنعهم من

أن يصبحوا علماء قانون متميّزين. غير أن إعطاء مكانة أرفع للتجربة الشخصية يعرّض الآفاق الفكرية للطلاب للخطر ويمكن رؤية هذه العملية على نحو أوضح فيما يتصل بتعليم الأطفال. إن بعض القواعد التوجيهية التي تضعها دور النشر لمؤلفي الكتب المدرسية تحتوي على تعليمات مخيفة. وبالنظر إلى أن المبدأ الذي يوجه سياستها هو الصلة بالواقع، فإن هذه التعليمات تسعى إلى حماية الأطفال من أي إشارات بعيدة عن تجاربهم الشخصية. على سبيل المثال، فإن قصة تدور أحداثها في الجبال تميّز ضد الطلاب الذين يعيشون في مناطق سهلية. وتم رفض قصة عن متسلق جبال أعمى وصل إلى قمة جبل ماكنللي، وهي أعلى قمة في أمريكة الشمالية من قبل لجنة شكلت لدراستها بعد أن صوَّت 12 من أعضاء اللجنة ضدها مقابل 11 لصالحها على أساس «التحيز الإقليمي». ثمة شعور بأنه لا يتوقع من الأطفال أن يقرؤوا أو يفهموا قصصاً تدور في مناطق غير مألوفة بالنسبة لهم. تلاحظ دايان رافيتش التي وضعت الدراسة:

> فكروا في عملية إفقار الخيال التي تنبع من مثل هذه الافتراضات: لا يمكن لأي فقرة في امتحان القراءة أن يشير إلى أي مكان جغرافي محدد. ينبغي أن تجري كل الأحداث في بيئات عامة. وبموجب هذه الافتراضات، لا يتوقع من أي طالب أن يفهم قصة تدور أحداثها في مكان يختلف عن المكان الذي يعيش فيه حالياً أو في مكان «لا يحتوي على أي خصائص مميزة»[164].

النقطة الرئيسة التي يمكن استنتاجها من نص رافيتش هي أنه كلما وجب على النصوص المدرسية تحقيق معايير الصلة بواقع التلاميذ، تضاءل محتواها الثقافي.

التعليمات التي تنص على أن الطلاب الذين يعيشون في سويسرا لا ينبغي امتحانهم حول قصص تدور أحداثها في قرية تعيش على صيد السمك في نيوفاوندلاند (كندا)، أو أن الطلاب الآسيويين لا ينبغي امتحانهم حول قصص تدور أحداثها في نيويورك، قد تبدو للكثيرين نسخة كاريكاتورية مشوهة من سياسة سليمة في الحساسية الثقافية. غير أن معظم السياسات الأكثر روتينية والمرتبطة بنظرية الوصول والصلة الوثيقة بالتجربة تستند إلى الافتراضات نفسها التي تمثّلها المشرفون المتزمتون على كتب الأطفال المدرسية. من الحضانة، مروراً بكافة المراحل الدراسية وصولاً إلى الجامعة والمتحف، يتوقع من الجمهور باستمرار أن يتهاوى وينهار لدى دخوله أرضاً ثقافية بعيدة عن حياته. حتى الكتب التي تستهدف طلاب الجامعات تبذل جهداً في تقليد المنشورات التي تستهدف طلاب المدارس الثانوية؛ وكلما أصبح محتوى المقررات الجامعية أكثر صلة بواقع الطلاب وحياتهم أصبح أيضاً أقل نظرية وأقل تجريداً. تتمثل النتيجة غير المقصودة لبرنامج جامعة هارفارد «في إدارة النقاشات الصعبة»، أو التعليمات التوجيهية لناشري الكتب المدرسية في إعادة الحياة الثقافية والفكرية إلى مرحلة الطفولة. إن الأهمية التي تسبغها مثل هذه المبادرات على صلة المناهج المدرسية والجامعية بحياة الطلاب وتجاربهم الشخصية تؤدي إلى

تقليص محتواها الفكري. وفي أسوأ حالاتها، تحوّل المؤسسات التي تتعاطى موضوع «الصلة» التعليم العام والفنون إلى شكل من أشكال العلاج الشخصي يقوم ببساطة على التوكيد بدلاً من التعليم والتحفيز. ويتم تقديم مثل هذه المبادرات في كثير من الأحيان على أنها تعكس تحولاً في اتجاه موقف أكثر ديمقراطية إزاء الثقافة، إن القصد المعلن لها هو زيادة «المشاركة»، و«توسيع الوصول»، و«تمكين المجتمعات المحلية»، و«تحطيم الحواجز» ومنح الناس الفرصة لإسماع «صوتهم». غير أن هذه المبادرات لا علاقة لها بعملية «الدمقرطة». إن المشروعات المسخّرة لتعزيز التوجه الديمقراطي ينبغي أن تسعى إلى تثقيف الجمهور؛ كي يطور فهمه الخاص للمواجهات الجديدة وتلك التي تشكل تحدياً. بدلاً من ذلك، تأمل هذه المبادرات في توسيع المشاركة عن طريق إزالة مثل هذه المواجهات التي تشكل تحدياً، في محاولة لمنع الناس من التراجع والخوف بسببها. كما تجادل جوزي آبلتون، عندما تتحدث النخبة الثقافية عن تحطيم حواجز الثقافة، فإن ذلك يعني عملياً اختزال التجربة الثقافية إلى رابط عاطفي لحظي[165] وتضيف أنه «ينظر إلى التفكير والحكم على الأمور على أنه يعيق الاتصال ويعزل الناس».

تتخذ «طفلنة» الثقافة أكثر أشكالها بروزاً في رفعها لمكانة التجربة الشخصية. عندما يتم التعامل مع التعليم والثقافة على أنهما إسقاط للعواطف الشخصية، تصبح الأفكار والموضوعات الفنية ذات قيمة بسبب المعنى الذي تحمله للفرد، وليس بسبب الإنجاز والأهمية التي تمثلها للجمهور أن الثقافة التي توجد من أجل مساعدة الناس على العثور على أنفسهم تعزز مزاجاً من الهوس بالذات والتوجه نحو

الداخل. وتلاحظ آبلتون أن «هذا يمثل نكوصاً إلى حالة الطفولة، حيث لا تمييز بين ما له قيمة بالنسبة لي، وما له قيمة عامة»[166]. ينزع لأطفال إلى منح القيمة لما يمنحهم المتعة والتوكيد. إن تعزيز مثل هذه المواقف لدى الجمهور يمثل تحويله إلى أطفال. كما أن الاحتفاء بالصوت العادي، عبر فكرة «هذه هي حكايتي»، ليست بعيدة كثيراً عن الإحساس العاطفي بأن «هذه هي لعبتي».

تحويل الناس إلى أطفال

تستند السياسات المرتبطة بالتشميل والوصول إلى نسخة ضعيفة على نحو فريد للذات الإنسانية. ففي خيال المنظّر الثقافي والتعليمي، يفتقر الجمهور إلى الموارد اللازمة للانخراط في المواجهات الفكرية أو الفنية الصعبة، ويفترض أن الناس غير قادرين على الارتقاء إلى أهمية المناسبة والتغلب على العقبات التي يواجهونها. تبعث هذه النظرة بمفهوم أن الناس أطفال بحاجة لمن يمسك بأيديهم، وهم يدخلون الجامعات أو يعبرون أبواب المتاحف أو المكتبات العامة. غير أن التركيز المنهجي على أن الناس لا يمكنهم أن يتكيفوا عندما تواجههم تحديات فكرية أو فنية يمكن أن تحدث أثراً مدمراً على الخيال العام. لم نصل حتى الآن إلى وضع يقدَّم فيه التوجيه النفسي للأشخاص الذين يزورون متحف الميتروبوليتان أو متحف فيكتوريا آند ألبرت؛ كي يتمكنوا من مواجهة البيئة المهيبة التي تُعرض فيها القطع الموجودة في المتحف، غير أن البالغين الشباب الذين يدخلون الجامعة كطلاب في المرحلة الجامعية الأولى أو مرحلة الدراسات العليا بات بوسعهم

الوصول إلى جملة متنوعة من الخدمات العلاجية لمساعدتهم على التكيف مع الكرب النفسي للحياة في الجامعة.

يُنصح الطلاب الذين تواجههم مشكلات الحياة العادية، وعلى نحو روتيني، بالسعي للحصول على مشورة مهنية وتوجيه احترافي. في كثير من الأحيان، يتم جعل أي تغيير في الظروف الشخصية للفرد مشكلة تتطلب دعماً احترافياً. يتخصص موجهو المراحل الانتقالية في تقديم الدعم للأفراد الذين يدخلون مراحل جديدة في حياتهم. وتفخر الخدمات التوجيهية في جامعة باث على موقعها على الإنترنت بأن «فريق التوجيه لديها يعي تماماً أهمية إدارة المراحل الانتقالية، وهم موجودون لمساعدتكم على تلمّس طريقكم». وكمثال توضيحي على أنواع المراحل الانتقالية التي يمكن أن تتطلب دعماً احترافياً، تذكر الخدمة دخول الجامعة كطالب في السنة الأولى من المرحلة الجامعة الأولى، وانتقال طلاب السنة الثانية من السكن الجامعي إلى السكن في المدينة، وعودة طلاب السنة الأخيرة بعد إنهاء دراستهم، والشروع في الدراسات العليا. وتحذر الخدمة من أن «مشاعر الثقة بالنفس قد تتعرض للتهديد بسبب مواجهة بيئة جديدة غير مألوفة وأناس جدد».

ويتوقع من الأكاديميين أيضاً معاملة طلاب المرحلة الجامعية الأولى بوصفهم أطفالاً، وليسوا شباباً، ويواجهون ضغوطاً مستمرة لتقليص ما يطلبونه من الطلاب. في بريطانية والولايات المتحدة، لا يتوقع من طلاب الجامعة في كثير من الأحيان أن يكونوا قادرين على امتلاك فهم لقواعد اللغة أو قدرة على كتابة مقالة. يعتقد المؤتمر الأميركي للإنشاء والتواصل في المعاهد، وهو الهيئة التي تمثل المدرسين

المحترفين لهذه المادة، بأنه: «إذا تمكنا من إقناع طلابنا بأن الإملاء، وعلامات الترقيم، وقواعد استعمال التعابير اللغوية أقل أهمية من المحتوى، فإننا نكون قد أزلنا عقبة كئودًا تقف في طريق تطوير قدرتهم على الكتابة»[167]. يوضح الدعوة إلى إزالة العوائق التي يمثلها الإملاء، والترقيم والقواعد اللغوية أي نوع من التعلّم تقدمه أجندة «الوصول» إلى الطالب العادي: إنه نوع من التعليم يهتم بمنح الطالب إحساساً بالإنجاز أكثر من اهتمامه بتعليم هذا الطالب.

ويتم تعريف فن رعاية الطلاب على أنه «ممارسات فضلى» في الجامعات. يطلب من المحاضرين أن يقدموا لطلاب المرحلة الجامعية الأولى موادَّ دراسية لا تترك شيئاً للمصادفة. لقد تم تحويل العلاقة غير الرسمية نسبياً بين الطالب والمدرس إلى علاقة تعاقدية؛ إذ بات ينظر إلى تقديم موجز عن المادة التدريسية وقائمة بالكتب المطلوب قراءتها على نحو متزايد كعقد ملزم للأكاديمي، ويفرض على الأكاديمي أن يقدم أهدافاً تعليمية محددة بوضوح. ويعطى الطلاب ملخصات توضح ما يفعله المحاضر. وكثيراً ما يعطون ملخصات عن المحاضرات ونماذج عن أسئلة الامتحَانات تشرح كيف ينبغي على الطلاب الإجابة عن الأسئلة. ويتم تدريب المحاضرين على تجنب الأنماط السلوكية التي من شأنها أن تجرح مشاعر الطلاب. وينبغي للملاحظات التي يعطيها المحاضرون أن تكون داعمة، ولا ينبغي أن يقال للطلاب أبداً: إنهم مخطئون، وينبغي على الممتحنين أن يحاولوا دائماً أن يجدوا أشياء إيجابية يقولونها حول مقالة كتبها الطالب.

لقد تم تبني أسلوب التوكيد الذي يفضله خبراء التعامل بين الأطفال وأهلهم من قبل الجامعات. ويصبح من المحتم في هذه الحالة أنه كلما زاد ما يخصصه الأكاديميون من طاقة لرعاية الاحتياجات العاطفية لطلابهم في المرحلة الجامعية الأولى، تراجع احتمال أن ينظروا إليهم بجدية بوصفهم مثقفين محتملين.

تشكل عملية تحويل الطلاب الجامعيين إلى أطفال رؤية متشائمة وغير ديمقراطية للناس. يتكون الجمهور المستهدف لسياسات التشميل من أفراد لا يشبهون على الإطلاق المثل الأعلى للذات الديمقراطية. إن مثل المشاركة الديمقراطية يفترض وجود مواطنين يتمتعون بالذكاء والمسؤولية للعمل وممارسة حقوقهم على نحو مستقل، وأن يكونوا قادرين على الانتقاد وتحمل النقد. يتمتع هؤلاء بالنضج والإحساس بالمسؤولية ويكونون مستعدين للاهتمام بمسائل لا تؤثر فيهم وحدهم، بل في شرائح أخرى من مجتمعهم. ترسل المؤسسات الثقافية والتعليمية المعاصرة إشارات توحي بأنه لا يتوقع من الناس أن يتصرفوا طبقاً للمثل الديمقراطية. بدلاً من ذلك فإنهم يتوقعون من الجمهور أن يكون عاطفياً، ومهتماً بشؤونه فقط، ويفتقر إلى الفضول وغير ناضج.

التعالي المعكوس

من منظور منظرينا الثقافيين، فإن القلق بشأن الأزمة الفكرية التي تواجه الجامعة، أي عملية تسطيح محتويات المناهج الجامعية، أو «طفلنة» الجمهور لا داعي له على الإطلاق. ويعتقدون أن كل ما حدث هو أن التعليم والثقافة قد أصبحا أكثر شمولية، ويفسرون الانتقادات

الواردة في هذا الكتاب على أنها حصيلة إيجابية لسياسات ترويج دمقرطة الثقافة. من حيث المفهوم، يقدَّم التشميل بوصفه تعبيرًا عن الدوافع التشاركية والمناهضة للنخبوية. بات العداء للنخبوية شرطاً لازماً لكل من يأمل في الانضمام إلى النخبة. وجرى توسيع معنى مصطلح «النخبوي» ليصف استعمال اللغة، والتجربة التعليمية والثقافية التي لا تعد ذات صلة مباشرة بالناس العاديين التي يمكن لهؤلاء الوصول إليها بسهولة. إن لغة «الشعبوية» التي تشكِّل الحياة الثقافية مُشكَّلة هي نفسها بمنطق ينظر إلى الادعاءات بالفوقية الفنية والفكرية بكثير من السخرية والتشكك. ينطوي وصف مؤسسة ما بأنها نخبوية عادة على معنى عدم قبولها وإدانتها. عندما تُنعت جامعتا أوكسفورد وكيمبردج بهذا الوصف لا يبقى شك في ذهن أحد بأن هذه مؤسسات لأصحاب الامتياز تهيمن عليها شبكة من الأشخاص الذين يعرفون بعضهم جيداً وبينهم مصالح متبادلة وبعيدون عن طموحات الناس العاديين. دار الأوبرا في كوفينت غاردن ترمز إلى كل شيء يُعتقد أنه سيء في المؤسسات النخبوية. فهي مملة، وباهظة التكاليف، وغير ذات صلة بالناس، وإقصائية، ولا تسهم في توكيد حياة الناس الذين يعيشون في أحياء لندن الفقيرة، والأسوأ من كل ذلك هو أنها تتطلب من الجمهور أن يصغي ويركز مددًا طويلة من الزمن على موسيقا وأغانٍ ليست جزءاً من حياته اليومية.

ثمة بالطبع حجة قوية في ضمان أن يتمكن الناس من دفع ثمن بطاقة الدخول إلى دار الأوبرا. غير أن الانتقادات الموجهة للأوبرا لا تقتصر على سياسة تسعير البطاقات؛ بل إنها تعبر عن العداء للأوبرا

كشكل فني على أنها تستجيب فقط لأذواق نخبة قليلة من الرجال والنساء أصحاب الامتيازات. وترتبط الدعوات إلى إعادة توزيع ما يتم إنفاقه على الأوبرا على المسارح أو المراكز الفنية المحلية بالتعبير عن الأفضليات الثقافية. وتتم مقارنة العروض التفاعلية الجريئة التي يتم إنتاجها على المسارح المحلية بعروض الأوبرا المملة وغير ذات الصلة بحياة الناس التي تحظى برعاية النخبة صاحبة الامتيازات. لقد أدت اللغة الفلستينية المستعملة في مثل هذه المناظرات بأحد المعلقين إلى الكتابة عما نشهده اليوم من «نخبة معادية للنخبة»[168].

من المهم أن ندرك أن مأسسة المشاعر المعادية للنخبة ليست رداً على توكيد الثقافة الشعبية من الأسفل. ليس الناس العاديون هم الذين يشكلون الطليعة في الحملة الهادفة إلى تحويل التعليم والثقافة إلى أشكال ذات صلة بحياة الناس وسهلة المنال. لقد نشأت النزعة المعادية للنخبة من أوساط النخبة ذاتها. يمكن أن نرى فيها شكلاً من أشكال التعالي، أو على وجه الدقة التعالي المعكوس.

يعرَّف الشخص المتعالي تقليدياً على أنه شخص يكمن الدافع وراء أفكاره وسلوكه في الإعجاب المبتذل بالثروة والمكانة الاجتماعية. أما التعالي المعكوس فيدفع إليه الاحتضان غير النقدي لما هو عادي وشعبي. المتعالون من هذا النوع ينتقدون دون تمييز الأشكال الثقافية التي كانت تحظى بالأهمية والقيمة في الماضي. ما يعترضون عليه ليس المستوى الجمالي لشكل فني معين، بل حقيقة أنه قديم وأنتجه وأعجب

بـه نوع من الناس لا يروقون لهم. وهـم يستهدفون بشكل رئيس النخب التـي ما زالت تتصرف على نحو واعٍ كنخـب، وينظر إلى نخبويتها على أنهـا إثم له تبعات لا يمكن غفرانها. وهذا نقـد للنخبوية يختلف تماماً عـن النقـد الذي وجهتـه لها الحركـة التقدميـة في الماضـي. ما كانت تستهدفه الحـركات التقدمية في القرنين التاسع عشر والعشرين يتمثل في الامتيـازات النخبويـة وتصميم قلة من الناس علـى التحكم بموارد المجتمع واستغلالها على حساب جودة حياة الأغلبية. أما معاداة النخبة اليـوم فنادراً ما تركز على القـوة الاقتصادية. بدلاً من ذلك فهي توجه نيرانها إلى أشكال من السلوك الرفيعة، والأفكار المعقدة، والتعلّم الذي يشـكل تحديـاً للمتعلمين، والأشـكال الفنية الصعبة التـي توصم اليوم بالنخبويـة ومن ثم تعـد شيئاً سيئـاً. في الواقع، يمكن تقـديم الالتزام بالمعايير بحد ذاته على أنه نخبوي، ضمناً، من حيث إنه لا يحترم أولئك الذيـن تفشل إنجازاتهم بتحقيقه. وينظر إلى حماية الناس من الثقافة النخبويـة، على أنها قضية إلزامية، حيـث تعد مثل هذه الثقافة تهديداً لاحترام الناس العاديين لأنفسهم.

لقـد كان للموقف النخبوي المعـادي للنخبوية أثرٌ عميـقٌ على الحياة الفكريـة. لقد صرفـت هذه المواقف اهتمـام المفكرين ومنتجـي الثقافة عـن تطويـر عملهم باتجاهات ليسـت ذات صلة مباشـرة بروتين الحياة اليوميـة. بالرغـم من أن المثقفـين والفنانين يقومون بكل مـا في وسعهم لتطويـر عملهم، فإنهـم يواجهون باستمرار بضغـوط تدفعهم للانصياع للسياسـات الحالية. لقـد شكلت الدوافـع والحسابـات السياسية دائماً

تحدياً للعمل الفكري الأصيل والمحاولات الفنية المبدعة. والعصر الحالي ليس استثناءً لتلك النزعة. يتعرض اليوم الأكاديميون، والمدرسون، والمنتجون الثقافيون لضغوط كبيرة للانصياع للعقيدة الشعبوية التي صاغها النخبويون المعادون للنخبوية. وكما يجادل أحد دعاة النزعة الشعبوية، فإن «أي صيغة للنشاط الفكري اليوم لا تستند إلى تقانة المعلومات وخطابات وصور الثقافة الشعبية التجارية لن تكون فاعلة»[169].

كثيراً ما تظهر تجليات التعالي المعكوس على أنه شيء من التكلُّف تتبناه نخبة استغلالية. لا شك في أنه من الصعب أن نأخذ دهاقنة الثقافة الأقوياء والأغنياء بجدية عندما يدعون إلى ضرورة إلغاء الامتيازات النخبوية وتوسيع أجندة التشميل. يتبنى بعض المعلقين وجهة النظر القائلة: إن النخب لا تعني فعلياً ما تقوله فيما يتعلق بالثقافة والتعليم. هذا ما يدفع به بقوة الناقد كريستوفر هيتشينز الذي يعتقد أن «الشعبوية» قد أصبحت «السلاح التكتيكي الرئيس، واللغة العامية الرئيسة للنخبة». ويضيف بأنه من المؤكد أن المجال الأكثر نجاحاً في النخبة الأميركية، أي السياسة الأميركية، هي أكثر مخترعي الشعبوية نجاحاً وتلاعباً بها، أو هي بالفعل القائد الحقيقي للشعبوية[170].

هيتشيز محق في تحذيرنا من النزعة الفوقية للاتجاهات الشعبوية في الثقافة المعاصرة. غير أن معاداة النخبوية من قبل النخبة الثقافية ليست ببساطة نوعاً من التكلف يتم تبنيه لغايات الاستهلاك الشعبي. إنه يعكس وجهات النظر الحقيقية لنخبة تفتقر إلى الإيمان بمكانتها وسلطتها. عندما يهاجم الرجال البيض أصحاب الامتيازات الذين

يديـرون الجامعـات الأميركية، أو دهاقنـة الثقافـة البريطانية الذين يديـرون البي. بـي. سي. الرجال البيض الأموات فإنهـم يعبّرون على نحـو نصـف واعٍ عـن ازدرائهـم لمواقفهـم الشخصيـة ذاتهـا. عندما يشجب خريجو هارفارد وأكسفورد المؤسسات التعليمية النخبوية فإنهم يكشفـون عن إحساس عميق بعدم الارتيـاح لنقلهم للمجتمع قيماً كانوا قـد تمثلوها في شبابهم. وحيث إنهم غير قادريـن على إرساء سلطتهم على المؤسسات والأعراف التي ضمنت لهم مواقعهم، فهم ينخرطون في البحث عن مصدر بديـل للشرعية. لقد أصبحوا غرباء على المؤسسات والقيم التي وفرت لهم قاعدة بنوا عليها مسيرتهم المهنية.

لقـد أدى غياب التوكيد عن سلطة النخبة إلى وضع تجد النخبة فيه صعوبـة في استحضار الإيمـان برسالتهم. إنها لا تمتلـك أي معتقدات قويـة، ولذلك فهـي منفتحة على التفاوض بشأن ما ينبغـي أن يحظى بالتقديـر ومـا ينبغي أن يتم رفضه. لقد سعـت إلى التغلب على الورطة التـي شكلتها لها أزمة الإيمان التـي تعانيها، وذلك بإعلانها بأن ما من منظومـة من المعتقدات يمكن أن تدّعـي احتكار الحقيقة. ولهذا السبب فـإن النخبة الثقافية عرضة لتأثير النسبيـة الثقافية. لقد أدت غربتها عن الإحساس بأنها تـؤدي رسالة والافتقار إلى الوضوح بشأن الحقيقة إلى تشجيـع موقف مرن إزاء القيم والحقيقة. بوضعها علامة استفهام على جميـع القيم والمؤسسات التي كانت تحظـى بالاحترام في السابق، فإن النخب تتجنب ضرورة الخروج بانطباع حول المعتقدات والممارسات التي ينبغي على المجتمع تقديرها واعتناقها. وبدلاً من أن تقدم الإجابات

فإنها تقدم الاعتراف والتوكيد. تساعد سياسات التشميل والتوكيد النخبة على تحاشي الإجابة عن أسئلة لا تمتلك إجابة واضحة عنها.

إن غياب إيمان النخبة بسلطتها يظهر في أبرز أشكاله في مجال السياسة. غير أنه كان لذلك أثر كبير أيضاً على الثقافة والتعليم. لقد ساعد على إذكاء عملية أدت إلى غياب أي حس بالاتجاه قوض قدرة النخبة على طرح رؤية واضحة لأهدافها. لا يمتلك صناع السياسات، ومديرو المتاحف، وإداريو الجامعات أي يقين حقيقي فيما يتعلق بالمعايير ويتشككون في قيمة المحافظة على هذه المعايير. الأمر لا يقتصر على عدم رغبتهم في توكيد إرثهم الثقافي، بل إنهم يجدون صعوبة أيضاً في التمييز بين جودة وقيمة التسلية الشعبية والأفكار والأعمال التي تعد نتاجاً للابتكار الفكري والإبداع الفني.

ما لدينا اليوم هو عبارة عن نخبة ثقافية فاقدة لحس الاتجاه، وتفتقر إلى أي معتقدات راسخة، وتشعر بعدم القدرة على فرض صورة متماسكة للعالم على باقي شرائح المجتمع. إنها نخبة تشعر بعدم الارتياح لفكرة أدائها الواعي لدور النخبة. وحيث إنها تعي عدم انسجامها كمجموعة، فإنها لا تجرؤ على الادعاء بأنها تمتلك خصائص التميز والفوقية. وحيث إنها غير قادرة على فرض نفسها كنخبة ثقافية، فإنها تعلن أنه من الخطأ، في كل الأحوال، محاولة تعليم وتثقيف الناس، وأنها ليس فقط لا تمتلك ما تعلمه للآخرين، بل إنها يمكن أن تتعلم الكثير من الناس العاديين. هذا القلب الظاهري للعلاقة بين النخبة والناس يُعبَّر عنه بوضوح عبر عملية التعالي

المعكوس. من المهم التأكيد على كلمة «الظاهري» لأن احتضانها الحالي للشعب يتزامن مع اعتقادها بأن الجمهور غير قادر على الانخراط في مواجهات فكرية وثقافية متطلبة. ومن هنا الوضع المتناقض الذي يتزامن فيه الاحتفاء بما هو عادي مع غياب الإيمان بقدرة الجمهور على التعامل مع الأفكار المعقدة.

تشكل التوقعات المتدنية التي تبنتها مؤسسات المجتمع حيال الجمهور سمة فريدة من سمات عصرنا. لقد مرّ موقف النخب من الجماهير تاريخياً بتغيرات كبيرة.

في عصور ما قبل الحداثة، كانت النخب تعدّ الجماهير غير قادرة على فهم الحقيقة وأنها تفتقر إلى القدرة التي تمكنها من فهم التبصرات العميقة. إن رأي سقراط الذي يقدمه أفلاطون بأن «من المستحيل على الرعاع أن يكونوا فلسفيين» نادراً ما تعرض للتحدي من قبل مثقفي العصور الكلاسيكية وعصور ما قبل الحداثة. وتمثل عنصراً مهماً من ميراث التنوير في أنه تحدى هذه الطريقة في تمثيل الجماهير. استمر غالبية مفكري التنوير في الاعتقاد بضعف القدرة العقلية للجماهير على التفكير المنطقي، واعتقدوا بأن القدرة على التفكير العلمي كانت حكراً على النخبة. غير أن هؤلاء المفكرين اعتقدوا أيضاً أنه من الممكن تعليم وتنوير العامة تدريجياً. منذ منتصف القرن التاسع عشر اكتسب الاعتقاد بأن من واجب النخبة أن تنوّر الشعب مزيداً من القوة. وقد احتُضن هذا المشروع بسهولة من قبل المثقف الحديث واستمر في تحفيز النخب الثقافية، حتى سبعينيات القرن العشرين.

تتمثل إحدى السمات المميزة لما يعرف بما بعد الحداثة في غياب الإيمان بفكرة القدرة على تنوير الجماهير. غير أن التشكك في مشروع تنوير الجماهير نادراً ما يتم التعبير عنه بطريقة منسقة وواضحة وعلنية. في عصر من التشميل والمشاركة، فإن التشكك في قدرة الشعب لا يمكن طرحه على نحو واضح وصريح. إننا نعيش في عصر يتم فيه التعتيم على البيانات الصريحة المتعلقة بقدرات الشعب باستعمال تعابير من قبيل «الطلاب ذوي الاحتياجات الخاصة» و«الأشخاص ذوي القدرات المختلفة»، و«الطلاب غير التقليديين»، والأشخاص المعرضين للتحدي في قدراتهم الفكرية. تترافق هذه اللغة المشوشة مع خطاب الإطراء الذي يعلن أن كل شخص يتمتع بالخصوصية وكل شخص مبدع. لكن في وقت يوصف فيه طلاب الجامعة العاديون بالهشاشة، من الواضح أن القدرات الذهنية للجمهور لا تحظى بالكثير من التقدير.

إن إطراء الناس يسمح للنخبة الثقافية أن تتجنب الاضطلاع بدورها التقليدي إزاء الجمهور؛ حيث إنه يبدو أن الناس في غاية الإبداع وأن حياتهم العادية توفر قدراً كبيراً من التبصر. فإنه من غير المجدي، بل من الغطرسة أن تضطلع النخبة بعبء تنوير الجمهور. بدلاً من شحذ الخيال العام، فإن دور النخبة الثقافية يصبح توكيده والاحتفاء به. تسمح سياسة الاعتراف للمؤسسة بأن تصوغ نقطة التقاء مع الناس، وأن تتجنب أيضاً مواجهة أزمة الشرعية.

ويتم حل العلاقة المتناقضة القائمة اليوم بين النخبة الثقافية والجمهور عبر المجادلة بأن هناك شيئاً خاطئاً بطبيعته في تدريس،

وتعليم وتثقيف ذائقة الجمهور. لقد اكتسبت وجهة النظر هذه مكانة الحقيقة التي لا تتزعزع بين صناع الرأي. وقد عبر تقرير تم وضعه لمجلس الفنون البريطاني عن هذه الفكرة على النحو الآتي:

> في الماضي، كانت الفنون تتخذ موقف المتفضل على الجمهور. كان الفنانون والمؤدون في معظم الأحيان يقدمون صنعتهم للجمهور نفسه المكون من أبناء الطبقة الوسطى البيض. وكانوا يحتفظون في خلفية أذهانهم بأمل غامض مفاده أن التنوير سيهبط بشكل شبه إعجازي على البقية، وأن الجماهير ستدرك يوماً مدى ذكائهم وبراعتهم[171].

تحت غلالة إدانة النخبوية، يشكك التقرير في فكرة أن الفنانين والمثقفين يمكن أن يؤدوا دوراً في تنوير الناس. طبقاً لوجهة النظر الساخرة هذه، فإن الجمهور لن يتعلم الكثير وأن على المؤسسات الثقافية أن تعترف بهذه الحقيقة.

بناء جمهور طيّع

يتمثل الأثر التراكمي لسياسات الاعتراف ببناء جمهور طيّع ومذعن. تعامل المؤسسات الثقافية والتعليمية الناس بوصفهم مستهلكين يتلقون الثقافة والتعليم بالملعقة. إن النظام الثقافي المستند إلى التوقعات المتدنية لا يمكن أن يحفز النقاش العام. وفي مجمل الأحوال، فإن الأهمية المتضائلة التي تعزى للأفكار والتشكك حيال مكانة المعرفة

تعني بأن من غير المجدي أخذ مثل هذه المناظرات على محمل الجد. يحرم غياب المعايير المؤكدة ثقافياً الناس من لغة مشتركة يمكنهم عبرها أن يطلقوا أحكاماً قيمة، وأن يكتسبوا قواماً منسجماً كجمهور. تصعب المناظرة والمجادلة العقلانية حول القضايا المعاصرة الحيوية في مجتمع يسخر نفسه للاحتفاء بالأصوات الفردية.

إن الجمهور الذكي هو نتاج لخميرة فكرية وثقافية ومناظرة مكثفة. وكما جادل عالم الاجتماع الأميركي سي. رايت ميلز، فإن الجمهور يتميّز بقدرته على تطوير حججه، وعلى التعبير عنها في المجتمع. ويلاحظ رايت ميلز أنه «في جمهور، كما أفهم الكلمة، فإن عدد الناس الذين يعبرون عن آرائهم يساوي عدد الناس الذين يستمعون لهذه الآراء؛ ينبغي أن يتم تنظيم التواصل بين الناس، بحيث تتاح الفرصة للرد الفوري والفاعل على أي رأي يتم التعبير عنه علناً»[172]. يركز رايت ميلز على نحو خاص على الاستقلال عن المؤسسات الرسمية بوصفه أحد الشروط السابقة لأداء جمهور مزدهر، وعارض بين «جمهور مستقل إلى حد ما في عملياته» وبين ما يسميه «الدهماء». بين الدهماء يكون عدد الأشخاص الذين يعبرون عن آرائهم أقل جداً من عدد الأشخاص الذين يتلقون مثل هذه الآراء. يتم تنظيم التواصل بطريقة تجعل من الصعوبة بمكان على الناس «أن يردوا بفاعلية». والأهم من كل ذلك، فإن «الدهماء غير مستقلة عن المؤسسات؛ بل على العكس يقوم عملاء المؤسسات ذات السلطة بتفسير الدهماء، مختزلة أي استقلال يمكن أن تمتلكه في صياغة الآراء في أثناء النقاش»[173].

إن المناخ الثقافي اليوم أكثر ملاءمة لتطور دهماء منه لتطور جمهور. يتم تقديم الجدال والمناظرة على أنهما مؤذيتان وتؤديان إلى النزاع. ويفضي نمو التشكك والنسبية الثقافية إلى التشكيك في قيمة النزاع حول الأفكار. غير أن التطور الأكثر أهمية الذي من شأنه أن يقوض الطريقة التي يعمل بها الجمهور يتمثل في توسيع دور المؤسسات الرسمية وشبه الرسمية في الحياة الثقافية والفكرية. لقد قلص التوسع الهائل للجامعة، ونشوء الولع بالشهادات والتدخل المتنامي للدولة في الحياة الثقافية من المجال المتاح أمام الجمهور؛ كي يمارس استقلاله. تؤدي السياسات التي ترفع راية التشميل، والوصول، والمشاركة في كثير من الأحيان إلى اختراق المؤسسات الرسمية لحياة الناس. إن مراقبة المؤسسات الثقافية والعلاقة بين الطلاب والأكاديميين تقوض التفاعل العفوي وغير الرسمي. وعبر جملة من الآليات، مثل التعلّم مدى الحياة، وشهادات الكفاية، والتدريب والتطوير، تصبح حياة الناس الثقافية والفكرية، خاضعة للتوقعات المؤسساتية. وهذه النزعات تحفز بدورها ظهور مزاج عام من الانصياع والسلبية.

إن حتمية الهندسة الاجتماعية تؤدي إلى استعمار الحياة غير الرسمية للناس. ويتم تقديم التعلّم السابق على أنه اعتراف بتجارب التعلّم المهمة التي اكتسبها الناس عبر مواجهاتهم في مجتمعاتهم المحلية وفي العمل. ويسعد الكثير من الناس بالطبع عندما يأخذ مدرسوهم حياتهم على محمل الجد. في مؤتمر أكاديمي عقد مؤخراً، ذكرت إحدى النساء مدى سعادتها بأن حياتها السابقة كسيدة منزل تم

الاعتراف بها واعتبارها ذات صلة بالمنهاج الذي تدرسه. لكن هل نريد فعلاً أن تصبح حياتنا موضوعاً لشهادات تمنحنا إياها المؤسسات. إن تحويل التجربة الشخصية إلى مؤهل رسمي عبر الاعتراف المؤسسي له أثر ضار على الجمهور، ومما لا شك فيه أنه يضعف استقلاله. وتؤدي اعتمادية التجربة الشخصية إلى مراقبة وتقويم هذه التجربة طبقاً لمعايير تضعها مؤسسة خارجية. وهذا من شأنه أن يفرض على الجمهور علاقة من الخضوع للمراقبين والمقيمين.

تسعى أجندة الهندسة الاجتماعية على نحو واعٍ إلى استعمار عالم وحياة الجمهور. يدّعي تقرير كُتب لتبرير مزايا المتاحف الصغيرة، على سبيل المثال، أن قوة المتاحف الصغيرة تكمن في «الأثر الذي يمكن أن تحدثه على الأفراد، وإلى حد أقل على مجتمعات محلية بأسرها (على سبيل المثال، تعزيز تقدير الذات، وتطوير المهارات، والمزايا المتعلقة بتعافي الأفراد في هذه المجتمعات)».

والسبب لأنها تستطيع بناء «علاقات أكثر حميمة مع أفراد المجتمع المحلي» والمساعدة في «تأسيس شبكات من الأصدقاء والصلات الاجتماعية الأخرى لكبار السن»[174]. تتمثل إحدى الحصائل المرغوبة لهذا المشروع في غزو مجال العلاقات غير الرسمية للأشخاص.

obeikandl.com

أفكار ختامية

إن تسفيه الإمكانات الثقافية الكامنة للجمهور لها مضامين مهمة بالنسبة لمستقبل الفكر. يحتاج المثقفون إلى جمهور ذكي، ويحتاج الفنانون لجمهور ناقد ومنخرط. لسوء الحظ فإن سياسة الإطراء الثقافي لا توفر حافزاً للناس كي يرتقوا إلى أهمية المناسبة. ونتيجة لذلك، فإن مجموع الطاقة الإبداعية للمجتمع يتم هدرها على إيجاد الطلب على الاعتراف والاستجابة لهذا الطلب. وأولئك الذين يصرون على المضي في رحلة حقيقية من الاكتشاف الفكري يخاطرون بأن يوصموا بالنخبوية وعدم الصلة بواقع الناس. يكتب كريستوفر هيتشينز: «لقد بت مقتنعاً على نحو متزايد أنه كي يكون المرء مثقفاً عاماً، أو معلقاً، أو مناضلاً، فإن عليه ألا يخشى تهمة النخبوية»[175]. سيجد أي شخص مهتم بصدق بالتأثيرات المقلقة التي تهيمن على حياتنا الثقافية صعوبة في عدم الاتفاق مع ما يشعر به هيتشينز.

يجب على المثقفين داخل الجامعة وخارجها، وزملائهم في عالمي الثقافة والفنون أن يواجهوا الحقيقة غير المريحة بأنهم يخاطرون بجعل أنفسهم نافلين إذا سمحوا للضغوط المؤسسية الحالية بالهيمنة على عملهم. لقد قام بعضنا بتمثل سياسات الإطراء الثقافي بفاعلية في حين بحث آخرون عن حياة مريحة عن طريق الرضوخ للمطالب المؤسسية. ينبغي على المثقفين أن يعيدوا بناء أنفسهم عبر استعادة

الاستقلال الذي ناضل أسلافهم من أجله في أزمنة سابقة. وأفضل طريقة لبناء هذا الاستقلال تتمثل في الانخراط في طموحات الجمهور، كي يؤخَذُوا على محمل الجد، والمساعدة في تثقيف هذه الطموحات. في عصر تسوده «طفلنة» الثقافة، بات التعامل مع الناس على أنهم أشخاص بالغون أحد الواجبات الرئيسة للمثقف الإنسانوي.

لقد قيل الكثير عن الأثر الضار للسياسات الثقافية، ولا سيما تلك التي تتعلق بالتشميل الاجتماعي، وجودة الحياة الفكرية المعاصرة. لكن سيكون من الخطأ أن ننحو باللائمة على الحكومات والمؤسسات الثقافية فقط. لقد حاول السياسيون والمؤسسات العامة دائماً فرض أجندتهم على الثقافة والتعليم، وللمثلين المنتجين كل الحق في الاهتمام بآليات عمل المؤسسات التي تتلقى تمويلاً عاماً. المثير للقلق ليس دور الطبقة السياسية بقدر ما هو انصياع عالمي الفن والتعليم للأجندة الفلستينية للهندسة الاجتماعية. كما أن الضغوط من أجل تسطيح محتويات المناهج الدراسية في المدارس والجامعات لم تأتِ كلها من خارج العالمين الأكاديمي والفني. لقد تم تمثل ثقافة الإطراء منذ أمد طويل من قبل المربين والمحاضرين والمنتجين الثقافيين. لقد أسبغ على الأنظمة المعرفية النسبية وعلى ازدراء المعايير صدقية فكرية من قبل الأكاديميين أنفسهم. وهكذا فقليلون هم الذين يمكن أن ينجوا من الملامة في هذه الحكاية.

مهما كان معنى عملية تسطيح محتويات المناهج الدراسية والاستهانة بذكاء الجمهور، فإنها لا تشير إلى ذكاء الناس؛ بل إنها مقولة حول

الثقافـة، وعلى وجه الخصوص، حول النخـب التي تؤثر في تدفق الأفكار الثقافيـة وتنظيمها. لا يسعنا فعل الكثير لنجـبر النخب على التخلي عن رؤيتهـا الأداتيـة والفلستينية للعالم. لكـن بوسعنا أن نشـن حرباً لكسب عقول الجمهور وقلوبهم. أما كيف نفعل ذلك فيبقى أحد الأسئلة الكبيرة لعصرنا.

obeikandl.com